رؤيا في السماء (١)

قال أبو خالد الأحول الزّاهد : لمّا ماتت امرأة شيخنا أبي ربيعة الفقيه الصُّوفيّ ، ذهبتُ مع جماعةٍ من النّاس ، فشهدنا أمرَها ؛ فلما فرغوا من دفنها ، وسُوِّي عليها ؛ قام شيخُنا على قبرها ، وقال : يرحمك الله يا فلانة ! الآن قد شُفيتِ أنت ، ومَرِضْت أنا ، وعوفِيتِ ، وابتليتُ ، وتركتني ذاكراً ، وذهبتِ ناسيةً ، وكان للدُّنيا بك معنىً ، فستكون بعدك بلا معنىً ؛ وكانت حياتكِ لي نصف القوَّة ، فعاد موتكِ لي نصف الضَّعف ؛ وكنت أرى الهموم بمواساتِك هموماً في صُوَرِها المخفَّفة ، فستأتيني بعد اليوم في صُورها المضاعَفة ؟ وكان وجودُكِ معي حجاباً بيني وبين مَشَقّاتٍ كثيرةٍ ، فستخلصُ كل هـذه المشاقُّ إلى نفسي ؛ وكانت الأيام تمرُّ أكثر ما تمرُّ في رقَّتك ، وحنانِك ، فستأتيني أكثر ما تأتي متجرّدةً في قسوتها ، وغِلظتها ! أما إني ـ والله ! ـ لم أرزأ(٢) منك في امرأةٍ كالنِّساء ، ولكنِّي رُزِئْتُ في المخلوقة الكريمة ؛ التي أحسَسْتُ معها أنَّ الخليقة كانت تتلطَّف بي من أجلها ! .

قال أبو خالد : ثمَّ ٱسْتَدْمَعَ الشَّيخُ ، فأخذتُ بيده ، ورجعنا إلى داره ، وهو كان أعلم بما يعزِّي النّاس بعضُهم بعضاً ، وأحفظُ لما ورَد في ذلك ؛ غير أنَّ للكلام ساعاتٍ تَبطل فيها معانيه ، أو تضعف ؛ إذ تكون النَّفس مُستغرقة الهمِّ في معنىً واحدٍ قد انحصرت فيه ، إمَّا من هول الموت ، أو حبٍّ وقع فيه من الهول ظلُّ الموت ، أو رغبةٍ وقع فيها ظلُّ الحبِّ ، أو لجاجةٍ(٣) وقع فيها ظل الرَّغبة ؛ فكنت أحدِّثه ، وأعزِّيه ، وهو بعيد من حديثي وتعزيتي ؛ حتّىٰ انتهينا إلى الدّار ، فدخلنا ، وما فيها أحدٌ ؛ فنظر يمنةً ، ويسرةً ، وقلبَ عينيه هاهنا وهاهنا ، وحَوْقل(٤) ، واسترجع(٥) ، ثمَّ قال : الآن ماتت الدّار أيضاً يا أبا خالد ! إنَّ البناء

---

(١) انظر « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .
(٢) « لم أرزأ » : لم أُصَبْ .
(٣) « لجاجة » : إلحاح .
(٤) « حوقل » : قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .
(٥) « استرجع » : قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

كأنَّما يحيا بروح المرأة الَّتي تتحرَّك في داخله ؛ وما دام هو الذي يحفظها للرَّجل ، فهو في عين الرَّجل كالمُطْرف[١] تلبسُه فوق ثيابها من فوق جسمها : وانظرْ كم بين أن ترى عيناك ثوب امرأةٍ في يد الدَّلال في السُّوق ، وبين أن تراه عيناك يَلبسُها ، وتلبُسه ! ولكنَّك يا أبا خالد ! لا تفْقه من هذا شيئاً ، فأنت رجل آليت لا تقربَ النِّساءَ ، ولا يَقرَبْنَك ، ونجوت بنفسك منهنَّ ، وانقطعت بها لله ؛ وكأنَّ كلَّ نساء الأرض قد شاركنَ في ولادتك ، فحرُمْن عليك ! وهـذا ما لا أفهمه أنا إلا ألفاظاً ، كما لا تفهم أنت ما أجد السّاعة إلا ألفاظاً ؛ وشتّان بين قائلٍ يتكلَّم من الطَّبع ، وبين سامع يفهم بالتكلُّف .

فقلت له : يا أبا ربيعة ! وما يمنعك الآن وقد اطَّرَحْت أثقالك ، وانبتَّتْ[٢] أسبابُك من النِّساء ؛ أن تعيش خفيف الظَّهر ، وتفرغ للنُّسْك والعبادة ، وتجعل قلبك كالسَّماء انقشع[٣] غيمُها ، فسطَعت فيها الشَّمس ؛ فإنَّه يقال : إنَّ المرأة ولو كانت صالحةً قانِتةً ؛ فهي في منزل الرَّجل العابد مَدخلُ الشَّيطان إليه ؛ ولو أنَّ هذا العابد كان يسكن في حسناته لا في دار من الطُّوب ، والحجارة ؛ لكانت امرأته كُوةً يقتحم الشَّيطان منها . ولقد كان آدم في الجنَّة ، وبينها وبين الأرض سمواتٌ ، وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلَّق رُوح الأرض بالشَّيطان ، فيتعلَّق الشَّيطان بحوّاء ، وتتعلَّق هي بآدم ؛ ومكرَ الشَّيطان ، فصوَّرها لهما في صيغة مسألةٍ علميَّة ، ومَكَرتْ حواءُ ، فوضعتْ فيها جاذبيَّة اللَّحم ، والدَّم ، فلم تعد مسألةَ علمٍ ، ومعرفةٍ ، بل مسألة طبعٍ ، ولجاجةٍ . ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [طه : ١٢١] .

وهل اجتمع الرَّجل والمرأة من بعدها على الأرض إلا كانا من نصَب الحياة ، وهمومها ، وشهواتها ، ومطامعها ، ومضارِّها ، ومعايبها ؛ في معنى : ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ . . . ؟ .

كلانا يا أبا ربيعة ! ممَّن لهم سيْرٌ بالباطن في هذا الوجود غير السَّير بالظَّاهر ، وممَّن لهم حركةٌ بالفكر غير الحركة بالجسم ؛ فقبيحٌ بنا أن نتعلَّق أدنى مُتعلَّق

---

(١) « المطرف » : رداء من خَزٍّ ، فيه نقوشٌ ، تلبسه المرأة في دارها ، وهو المسمَّى (الرُّوب) . (ع) .

(٢) « انبتت » : انقطعت .

(٣) « انقشع » : انكشف ، وزال .

بنواميس هذا الكون اللَّحمِيِّ ؛ الذي يُسمَّى : المرأة ، فهو تدَلٍّ ، وإسفافٍ[١] منَّا .

ولعلَّك تقول : « النَّسل ، وتكثير الآدميَّة » ! فهذا إنَّما كتب على إنسان الجوارحِ ، والأعضاء ، أمَّا إنسان القلب ؛ فله معناه ، وحُكم معناه ؛ إذ يعيش بباطنه ، فيعيش ظاهره في قوانين هذا الباطن ، لا في قوانين ظاهر النَّاس ؛ وإنَّه لشرٌّ كلُّ ما نقلك إلى طبع أهل الجوارح ، وشهواتِهم ، فزيَّن لك ما يُزيِّن لهم ، وشغلك بما يَشْغَلهم ؛ فهذا عندنا ـ يرحمك الله ـ بابٌ كأنَّه من أبواب المُجون ؛ الذي ينقل الرَّجل إلى طبع الصَّبيِّ .

فاطمِسْ يا أخي ! على موضعها من قلبك ، وألقِ النُّور على ظِلِّها ، فالنُّور في قلب العابد نور التَّحويل إن شاء ، ونور الرُّؤية إن شاء ، يرى به المادَّة كما يريد أن تكون ، لا كما تكون ؛ وأنت قد كانت فيك امرأةً ، فحوِّلْها صلاةً ، واعمل بنورك عكس ما يَعمل أهل الجوارح بظلامهم ، فقد تكون في أحدهم الصَّلاة ، فيُحوِّلها امرأةً . . .

قال أبو ربيعة : تالله إنَّه لرأيٌ ! والوَحدة بعد الآن أَرْوَحُ لقلبي ، وأجمعُ لهمِّي ، وقد خلعني الله ممَّا كنت فيه ، وأخذ القبر امرأتي ، وشهواتِي معاً ، فسأعيش ما بقيَ لي فيما بقي منِّي ؛ وزوال شيءٍ في النَّفس هو وجود شيءٍ آخر ، ولقد انتهيتُ بالمرأةِ ومعانيها وأيَّامها إلى القبر ، فالبدءُ الآن من القبر ، ومعانيه ، وأيامه .

* * *

وتَواثقا على أن يسيرا معاً في (باطن) الوجود . . . ! وأن يعيشا في عُمرٍ هو ساعةٌ معدودةُ اللَّحظات ، وحياةٌ هي فكرةٌ مرسومةٌ مصورةٌ .

قال أبو خالد : ورأيت أنْ أبيت عنده وفاءً بحقِّ خدمته ، ودفعاً للوحشة أن تعاودَه ، فتدخل على نفسه بأفكارها ، ووساوسها ، وكان قد غمرَنا تعبُ يومِنا ، وأعْيا أبو ربيعة ، وخذلته القوَّة ، فلمَّا صلينا العِشاء ؛ قلت : يا أبا ربيعة ! أحبُّ لك أن تنعَس ، فتريح نفسك ؛ ليذهب ما بك ، فإذا استجمَعْت ؛ أيقظتك ، فقمنا سائر اللَّيل .

---

(١) « إسفاف » : أسفَّ فلان : طلب الدنيء من الأمور .

فما هو إلا أن اضطجع حتَّى غلبه النُّعاس ، وجلست أفكِّر في حاله ، وما كان عليه ، وما اجتهدْت له من الرَّأي ، وقلت في نفسي : لعلَّني أغريتُه بما لا قِبَل له به ، وأشرتُ عليه بغير ما كانَ يَحْسُن بمثله ، فأكون قد غششتُه ، وخامرني[١] الشَّكُّ في حالي أنا أيضاً ، وجعلت أقابل بين الرَّجل متزوِّجاً عابداً ، وبين الرَّجل عابداً لم يتزوَّج ، وأنظر في ارتياض أحدِهما بنفسه ، وأهله ، وعياله ، وارتياض الآخر بنفسه وحدها ، وأخذت أذهب ، وأجيء من فكرٍ إلى فكرٍ ، وقد هدأ كلُّ شيء حولي ، كأنَّ المكان قد نام ، فلم ألبثْ حتى أخذتني عيني فنمتُ ، واسْتثقلتُ ، كأنَّما شُدِدْتُ شدّاً بحبالٍ من النَّوم ، لم يجيء من يَقطعُها .

ورأيت في نومي كأنَّها القيامةُ وقد بُعثُ النَّاس ، وضاق بهم المحشر ، وأنا في جملة الخلائق ، وكأنَّنا من الضَّغْطةِ حَبٌّ مبثوثٌ بين حَجَرَي الرَّحى . هذا والموقفُ يغلي بنا غليان القِدْر بما فيها ، وقد اشتدَّ الكرْبُ ، وجَهَدَنا العَطشُ ، حتى ما مِنَّا ذو كبدٍ إلا وكأنَّ الجحيم تتنفَّس على كبده ، فما هو العطش ، بل هو السُّعارُ واللَّهبُ يَحتدِمُ[٢] بهما الجوفُ ، ويتأجَّج .

فنحن كذلك إذا وِلْدانٌ يتخلَّلون الجمعَ الحاشد ، عليهم مناديلُ من نورٍ ، وبأيديهم أباريقُ من فِضَّةٍ ، وأكوابٌ من ذهبٍ ، يملؤون هذه من هذه بسَلْسالٍ بَرودٍ عذبٍ ، رُؤْيته عطشٌ مع العطش ، حتى ليتلوَّى من رآه من الألم ، ويتلعلعُ[٣] كأنَّما كُوِيَ به على أحشائه .

وجعل الوِلدَانُ يسقون الواحد بعد الواحد ، ويتجاوزون من بينهما ، وهم كثرةٌ من النَّاس ؛ وكأنَّما يتخلَّلون الجمعَ في البحث عن أُناسٍ بأعيانهم ، ينضحون غليل أكبادهم بما في تلك الأباريق من رَوْحِ الجنَّة ، ومائها ، ونسِيمها .

ومَرَّ بي أحدهم ، فمددتُ إليه يدي ، وقلت : « أسقِني ، فقد يَبِسْتُ ، واحترقتُ من العطش ! » .

قال : « ومن أنت ؟ » .

---

(١) « خامرني » : خامره : خالطه ، وقاربه .
(٢) « يحتدم » : يتَّقد ، ويشتعل .
(٣) « يتلعلع » : يتضوَّر من الجوع والعطش .

قلت : « أبو خالد الأحول الزَّاهد . . . » .

قال : « ألكَ في أطفال المسلمين وَلدٌ افترَطْتَه صغيراً ، فاحتسبته عند الله ؟ » .

قلت : « لا . . ! » .

قال : « ألك ولد كَبِرَ في طاعة الله ؟ » .

قلت : « لا . . ! » .

قال : « ألك ولد نالتك منه دعوةٌ صالحةٌ جزاءَ حقِّك عليه في إخراجه إلى الدُّنيا ؟ » .

قلت : « لا . . ! » .

قال : « ألك ولدٌ من غير هؤلاء ، ولكنَّك تعبتَ في تقويمه ، وقمتَ بحقِّ الله فيه » .

قلت : « يرحمك الله ؛ إنِّي كلَّما قلتُ : « لا » أحسَسْتُ « لا » هذه تمرُّ على لساني كالمِكواةِ الحامية . . . » .

قال : « فنحن لا نسقي إلا آباءنا ؛ تَعِبوا لنا في الدُّنيا ، فاليومَ نتعب لهم في الآخرة ، وقدَّموا بين يديهم الطُّفولة ، وإنَّما قدَّموا ألسنةً طاهرةً للدِّفاع عنهم في هذا الموقف الَّذي قامت فيه محكمةُ الحسَنةِ والسَّيئة ، وليس هنا بعد ألسنةِ الأنبياء أشدُّ طلاقةً من ألسنة الأطفال ، فما للطِّفل معنىً من معاني آثامِكم يَحتبِسُ فيها لسانُه ، أو يُلجْلِجُ به » .

قال أبو خالد : فجُنَّ جنوني ، وجعلتُ أبحثُ في نفسي عن لفظةِ « ابن » فكأنَّما مُسِحَت الكلمةُ من حِفظي ، كما مسِحت من وجودي ؛ وذكرت صَلاتي ، وصيامي ، وعبادتي ، فما خطرت في قلبي حتَّى ضحك الوليدُ ضحِكاً وجدت في معناه بكائي ، ونَدمي ، وخَيبتي .

وقال : يا ويلك ! أما سمعتَ : « إنَّ من الذُّنوب ذنوباً لا تكفِّرها الصَّلاة ، ولا الصيامُ ، ويُكفرها الغمُّ بالعِيال » أتعرفُ من أنا يا أبا خالد ؟

قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : أنا ابن ذاك الرَّجل الفقير المُعِيل ، الَّذي قال لشيخك إبراهيم بن أدهم

العابد الزَّاهد : « طوبى لك[١] ! فقد تفرَّغتَ للعبادة بالعُزوبة » ! فقال له إبراهيم : « لرَوعةٌ تنالك بسبب العِيال أفضل من جميع ما أنا فيه . . . » ، وقد جاهدَ أبِي جِهاد قلبه ، وعقله ، وبدنِهِ ، وحمل على نفسه من مقاساة الأهل والولد حملها الإنسانيَّ العظيم ، وفكَّر لغير نفسه ، واغتمَّ لغير نفسه ، وعمل لغير نفسه ، وآمن ، وصبر ، ووثِق بولاية الله حين تزوَّج فقيراً ، وبضمانِ الله حين أعقب فقيراً ، فهو مجاهِدٌ في سُبلٍ كثيرةٍ ، لا في سبيلٍ واحدةٍ ، كما يجاهد الغُزاة : هؤلاء يستشهدون مرَّةً واحدةً ، أمَّا هو ؛ فيستشهد كلَّ يومٍ مرَّةً في همومه بنا ، واليومَ يرحمه الله بفضل رحمتِه إيَّانا في الدُّنيا .

أما بَلغكَ قولُ ابنِ المبارَك وهو مع إخوانه في الغزْو : « أتعلمون عملاً أفضلَ ممَّا نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلمُ ذلك ! قال : أنا أعلم ! قالوا : فما هو ؟ قال : رجل مُتعفِّفٌ على فقره ، ذو عائلةٍ ، قد قام من اللَّيل ، فنظر إلى صبيانه نياماً مُتكشِّفين ، فستَرهم ، وغطَّاهم بثوبه ؛ فعَمَلُه أفضلُ ممَّا نحن فيه » .

يخلع الأبُ المسكينُ ثوبه على صِبيته لِيُدفِئهم به ، ويتلقَّى بجلده البرد في الليل ! إنَّ هذا البرد ـ يا أبا خالد ! ـ تحفظه له الجنَّة هنا في حرِّ هذا الموقف ، كأنَّها مُؤتَمنةٌ عليه إلى أن تُؤدِّيَه ، وإنَّ ذلك الدِّفْءَ الذي شمل أولادَه يا أبا خالد ! هو هنا يقاتل جهنَّم ، ويدفعُها عن هذا الأب المسكين .

قال أبو خالد : ويَهُمُّ الوليدُ أن يمضيَ ، ويدعني ، فما أملكُ نفسي ، فأمدُّ يدي إلى الإبريق ، فأنشِطُه من يده ، فإذا هو يتحوَّل إلى عظمٍ ضخمٍ قد نشِب في كفِّي ، وما يليها من أسَلةِ الذِّراع[٢] فغابت فيه أصابعي ، فلا أصابعَ لي ولا كفّاً ، وأبى الإبريقُ أن يسقيَني ، وصار مُثلةً بي ، وتجسَّدت هذه الجريمةُ لتشهدَ عليَّ ، فأخذني الهولُ ، والفزَع ، وجاء إبريقٌ من الهواء ، فوقع في يد الوليد ، فتركني ، ومضى .

وقلت لنفسي : ويحكَ يا أبا خالد ! ما أراكَ إلا محاسَباً على حسناتك ، كما يُحاسب المذنبون على سيِّئاتهم ، فلا حول ، ولا قوَّة إلا بالله !

---

(١) « طوبى لك » : الطوبى : الحُسْنَى ، والخير .

(٢) « الأسلة » : ما يلي الكفَّ من الذِّراع إلى القسم المستغلظ منها ، فالأسلة : هي العظمة التي تُشَدُّ عليها ساعةُ اليد . (ع) .

وبلغتْني الصَّيحةُ الرَّهيبة : أين أبو خالد الأحولُ الزَّاهدُ العابد ؟

قلت : هاأنذا .

قيل : طاوُوسٌ من طواويس الجنَّة قد حُصَّ ذَيْلُه[١] فضاع أحسنُ ما فيه ! أين ذَيْلُك من أولادك ؟ وأين محاسنُك فيهم ؟ أخُلِقت لك المرأةُ لتتجنَّبها ، وجُعِلْتَ نَسْلَ أبويك ؛ لتتبرَّأ أنت من النَّسل ؟ !

جئتَ من الحياة بأشياءَ ليس فيها حياة ؛ فما صنعتَ للحياة نفسِها إلا أن هربتَ منها ، وانهزمتَ عن ملاقاتها ؛ ثُمَّ أنت تأمُلُ جائزةَ النَّصر على هزيمةٍ ! عملت الفضيلة في نفسك ، ونشأتِك ، ولكنَّها عَقِمَت ، فلم تعمل بك . لك ألفُ ألفِ ركعةٍ ، ومثلها سَجداتٌ من النَّوافل ، ولخيْرٌ منها كلِّها أن تكون قد خرجتْ من صُلبك أعضاءُ تركع ، وتسجد !

قتلتَ رجولتَك ، ووأدْتَ فيها النَّسل ، ولبثت طوالَ عمرك ولداً كبيراً لم تبلغ رتبةَ الأب ! فلئن أقمتَ الشَّريعة ؛ لقد عطَّلتَ الحقيقة ، ولئن . . .

قال أبو خالد : ووَقَعَتْ غُنَّة النَّون الثَّانية في مسْمعيَّ من هول ما خفتُ ممَّا بعدها كالنَّفخ في الصُّور ، فطار نومي ، وقمتُ فزِعاً مشتَّتَ القلب ، كمن فتح عينيه بعد غَشْيةٍ ، فرأى نفسه في كفنٍ في قبرٍ سُدَّ عليه . . . !

وما كدت أعي ، وأنظر حولي ، وقد بَرَقَ الصُّبحُ في الدَّار ، حتى رأيتُ أبا ربيعة يتقلَّب كأنَّما دحرجتْهُ يدٌ ؛ ثمَّ نهض مُستطارَ القلب من فزعِه وقال : أهلكتَني يا أبا خالد ! أهلكتني والله !

* * *

قلت : ما بالك يرحمك الله ؟ !

قال : إنِّي نمتُ على تلك النِّيَّة التي عرفتَ : أن أجمعَ قلبي للعبادة ، وأخلصَ من المرأة والولد ، ومن المعاناة لهما في مَرَمَّةِ المعاش ، والتَّلفيقِ بين رغيفٍ ورغيف ، وأن أعْفِيَ نفسي من لأوائهم[٢] ، وضرَّائهم ، وبَلائهم ، لأفرغَ إلى الله

---

(١) « حص ذيله » : قطع ، وجذّ . (ع) .

(٢) « لأوائهم » : اللأواء : ضيق المعيشة ، والشِّدَّة .

وأقبلَ عليه وحده ؛ وسألتُ الله أن يَخِيرَ لي في نومي ؛ فرأيتُ كأن أبواب السَّماء قد فُتحتْ ، وكأنَّ رجالاً ينزلون ، ويسيرون في الهواء يتبعُ بعضهم بعضاً ، أجنحةً وراءَ أجنحةٍ ؛ فكلَّما نزل واحدٌ نظر إليَّ وقال لمن وراءه : هذا هو المشؤوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشؤوم !

وينظر هذا الآخر إليَّ ، ثمَّ يلتفت لمن وراءه ، ويقول له : هذا هو المشؤوم !

فيقول الآخر : نعم هو المشؤوم !

وما زالت « المشؤوم ، المشؤوم » حتَّى مرُّوا ؛ لا يقولون غيرها ، ولا أسمع غيرها ، وأنا في ذلك أخاف أن أسألهم ؛ هيبةً من الشُّؤم ، ورجاءَ أن يكون المشؤوم إنساناً ورائي يُبصرونه ، ولا أبصره ؛ ثمَّ مرَّ بي آخرهم ، وكان غلاماً فقلت له : يا هذا ! من هو المشؤوم ؛ الَّذي تُومؤون إليه ؟

قال : أنت !

فقلت : ولم ذاك ؟

قال : كنَّا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثمَّ ماتت امرأتك ، وتحزَّنتَ على ما فاتك من القيام بحقِّها ، فرفعْنا عملك درجةً أخرى ، ثمَّ أُمِرْنا اللَّيلة أن نضع عملك مع الخالفين ؛ الَّذين فرُّوا ، وجَبُنوا . . . .

* * *

إنَّ سُموَّ الرَّجُلِ بنفسِهِ عن الزَّوْجَةِ والولدِ طَيَرانٌ إلى الأعلى . . ولكنَّه طيَرانٌ على أجْنِحةِ الشَّياطِينِ ! . . . طَيرانٌ بالرَّجُل إلى فُوهَةِ البُرْكان ؛ الَّذي في الأعلى . . . !

* * *